الحَوارِيُّون

الحَواريُّون

الجزء الثّاني من ثلاثيّة المسيح

المؤلف: أيمن العتوم

الناشر : الإبداع الفكري للنشر والتوزيع - الكويت

رقم الإيداع: 0439/2024

الترقيم الدولي: 978-1234-123-0

الإبـــداع الفكري

للنشر والتوزيع

ebdaafekry

www.ebdaafekry.com

هاتف: 22675321 – **فاكس:** 22675365

ص.ب 28589 **الصفاة** 13146 **الكويت**

تصميم وإخراج: 6Y4

جميع الحقوق محفوظة للناشر: (شركة الإبداع الفكري) يمنع النسخ أو التصوير أو النقل أو النشر في موقع الشبكة الإلكترونية أو الاقتباس من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر. (ومن يخالف ذلك يقع تحت طائلة الملاحقة القانونية)

رواية

أيمن العتوم

الحَوارِيُّون

الجزء الثّاني من ثلاثيّة المسيح

2024

(٤١)

كيفَ تقتلُ مَنْ لا ذنبَ له؟!

لـم يَمُـرَّ يـومٌ علـى (أَنْتيبـاس) بأسـعدَ مـن ذلـك اليـوم ولا بأشْـأَمَ منه!! دخـل عليـه قائـدُ جيوشـه، وانحنَـى أمـام عَرْشِـه، ثُـمّ تراجـع إلـى الـوراء خُطوتَيـن، وجثـا علـى إحـدى رُكبَتَيـه، وهتـف:

- سيّدي.
- قُلْ ما عندك أيّها القائد.
- اليـوم تَوَّجْنـا انتصاراتِنـا؛ لقـد أَنزلْنـا هزيمـةً سـاحقةً بأعدائنـا. طهّرْنـا كُلّ الحامِيـات، وامتـدّ مُلـكُكَ فـي كُلّ الجهـات. ورضخـتْ لسـلطتك كُلّ بـلادِ الجليـل وشـرقِ الأردنّ وجنـوبِ سـوريّة.

وقـفَ (أنتيبـاس) مزْهُـوّا، وصـرخَ صرخـةَ المُنتَصِـر: أنـا ربّ هـذه البـلادِ كُلِّهـا، سأسـحقُ كُلَّ مَـنْ تَبقَّـى مـن الفِئـران المُتطاوِلـة علـى مَمْلكتي. ثُـمّ صمـتَ لحظـة. كان القائـد مـا زال يقـفُ كالتّمثـال أمامـه. وجّـه كلامَـه إليـه: «أريـدُ أنْ أحتفل بهـذا النّصـر العظيـم، أريـدُ أن يصـلَ صـوتُ احتفالاتنـا إلـى رومـا، إلـى القيصـر نفسـه، أريـدُ أن يـأكل كُلّ ملـوكُ فلسـطين، ويشـربوا، ويرقصـوا، ويفعلـوا كُلّ المُنكـرات الّتـي نهـتْ عنهـا آلهـةُ المعبـد... هيّـا أيّهـا القائـد أعْلِـنْ ذلـك فـي المملكـة، وادْعُ الرّؤسـاء والأمـراء ليشـهدوا عَظَمتي».

كانـتْ (هيروديّـا) تنتظـر هـذه اللّحظـةَ مـن زمـنٍ طويـل. أسـرعتْ إلـى عربـةٍ تُقِلُّهـا إلـى القصـر. قابلَـتْ قائـدَ الجيـش.

وهبتْه جسدها مُقابِلَ طلبٍ واحد: أن يُقنِعَ (أنتياس) بأنْ ترقُصَ (سالومي) وحدها في حفل انتصاره. قال لها: أمرٌ سَهل مُقابِلَ جَسدٍ صَعب.

دخل القائِدُ في صباح اليومِ التّالي على (أنتياس)، انحنى كعادته، سأله المَلِك:

- هل دعوتَ عِلْية القوم إلى حفل النّصر؟!
- بلى يا سيّدي. وأعددتُ الطّعامَ والشّراب.
- والرّقص؟!
- ستتكفّل به أفضلُ من رقصتْ في الأرض.

طرب الملك لِما سَمِع، لانتْ تقاطيبُ وجهه، وسأل بِخُبث:

- وَمنْ تكونُ أيّها الشّقيّ؟!
- إنّها (سالُومي).
- وَمَنْ (سالومي) هذه؟!
- ربّما نَسِيتَها؛ إنّها ذات الجسد الأفعى الّتي رقصتْ في وصلتها وحدها في إحدى حفلاتِكَ السّابقة.
- تقصد ابنة (هيروديّا)؟!
- بلى، يا سيّدي.
- ولكنّ أمّها ذِئبة، أخافُ مِنْ أنيابها؟!
- أنتَ قلتَ أمّها؛ فما شأنُها هي؟!
- وَمنْ تكونُ البِنتُ غيرَ أُمِّها!!
- مختلفتان يا سَيّدي؛ ألا يجتمعُ الوردُ والشّوك!!
- ألا تُوجدُ أخرى؟!
- لا يُوجَد أفضل مِنها؛ إلاّ إذا أردتَ أنْ يكونَ حفلاً عادِيًّا.

- كلاّ.
- هِيَ وحدها.
- وحدها؟! لِماذا؟!
- لأنّها ترقُص بإيقاعٍ لا يُمكن لراقِصةٍ أخرى أن تُجارِيَه؛ ولأنّه لِنَصْرٍ مُتفرِّد يجب أنْ تقومَ في حفلِه راقِصةٌ مُتفرّدة. أيُمكِنُ أن تقاتِلَ في معركةٍ على ظهر حِمار؟!!
- لكَ ذلك. ومتى سيُقامُ الحفل؟
- بعدَ أسبوعٍ سيّدي، حتّى نُعِدَّ له إعدادًا يليقُ بانتصارٍ إمبراطوريٍّ عظيم.

بدأ قلبُ (هيروديّا) يخفِقُ بشدّة، لقد حانتِ اللّحظةُ الحاسِمة؛ فإمّا أن تُطلِقَ سهمَها المَسموم إلى الهدفِ فتُصيبَ فيه مقتلاً أو تدعَ السِّهامَ والأمر كلّه جانِبًا. قالتْ لابنتِها: حفلةٌ واحِدةٌ في قصر (أَنْتِياس) تُغنِيكِ سنةً كامِلةً عن الرّقص في هذا المَبغَى. لا ترقصي من الآن فيه حتّى يوم الحفل؛ معنا أسبوعٌ للاستِعدادِ لذلك.

أريدُ أنْ أُعلّمكَ فنونًا لم تخطُر على بالِ الشّيطان نفسه، سأجعل الأرض ترتجّ على اهتزازاتِ هذا البطنِ المُخملِيّ الفاتِن، إنّها فُرصَتُنا لنُريهم أيّ مهارةٍ نملك، وأيّ سِحرٍ نَحوز!

قضتْ هيروديّا وسالومي أسبوعًا كامِلاً تستعدّان للحفلة، رَقصَتا معًا في كلّ يومٍ نهارًا مُبصِرًا ونِصفَ ليلٍ أعمَى. رَقَصَتا حدّ الثُّمالة حتّى رقصَ معهما عمودُ الرّخام، ومرآة الحائِط، وإطارُ اللّوحة، ومِزلاجُ الباب، وكوبُ الشّراب، وطبلُ العازِف... كانَ حِقدُ هيروديّا على

يحيى يُفضي بها إلى اختراع فنونٍ للرّقص لم تعرفْ هي نَفْسَها أنّها قادِرةٌ على اكتِشافِها مِنْ قبلُ، كان الحقد شعرةً من زُجاجِ تَحُزّ قلبَها، وآنَ لها أن تتخلّصَ منه بغرزِهِ في صَدْرِ مَنْ كانَ سببًا في إهمالِها. بدا أنّ العالَم يتّسع أمام ناظِرَيها، كُتلةُ السّواد المكتظّة في كَبِدِها ستلفِظُها عن قريب بعد أن تَشفي غليلها مِنْ غريمِها.

أَلْبَسَتْها لِباسَ الرّقص، وأتقنتْ زِينَتها حتّى غدتْ خلاّبةً جَذّابةً، ولم يَكُنْ لفتنةٍ أن تمشي على ساقَينِ يومَئِذٍ سواها. أقلّتْهُما العَرَبَةُ الملوكيّة إلى القصر الفخيم. تعرفه هيروديّا تمامًا. وتعرفُ مداخله ومخارجه، كانَ هذا يومَ كانتْ سيّدتَه، أمّا اليومَ فليسَ لها إلاّ أن تنظرَ إلى أسْوارِها، كانَ القصرُ نزوةً، وكانَ أنتيباس يُمكن أن يُبيحه لعابِراته مُقابِلَ قضاء هذه النّزوة. اليوم ستُريه كيفَ تستعبده مقابِلَ طرده لها. اليومَ ستري يحيى كيفَ تَثْأر منه مُقابل فتواه اللّعينة. وَمنْ قال لهذا الأفّاكَ أن يُفتي لهذا الملعون!! ومنذُ متى يُؤمنُ الخنزير بالفتوى ويعمل بها؛ هل رأيتُم خِنزيرًا يَستفتِي على دَنَسِه!!

نزلتْ (هيروديّا) من العَرَبةِ عند مدخل القصر، ودخلتِ العَرَبةُ بسالومي دونها. كان اللّيل يزحفُ تدريجيًّا على جِبال الجليل الجاثِمة في هذه البُقعةِ العالية، وكانَتْ نوافِذُ القصر الزّجاجيّة تعكِسُ لَمَعانَ الشّمس في آخر إشعاعاتها مثلَ ذُبالةِ شمعةٍ توشكُ أن تنطَفِئ. اتخّذتْ لها مكانًا منزويًا بعيدًا عن الأعين، ولا يعرف به إلاّ ابنتُها؛ الفخّ الّذي تأمُل أن يصيدَ فأرَه. لم يكنْ أحدٌ ليراها أو

حتّى ليعرفها فيما لو رآها، في حين أنّها كانتْ ترى كُلّ عرباتِ المدعوّوين وهي تجتازُ البوّابة إلى داخل القصر في السّاحة الّتي تمتدّ أمام قاعة الاحتِفالات. رأتْهم واحِدًا واحِدًا يعبرون؛ هذه مقصورة فيلُبّس زوجها الأسبق، تنهّدتْ حينَ مرّتْ عَرَبَتُه؛ رأتْ وجهه الصّفيق ما زال كما هُو، وإلى جوراه تجلسُ امرأةٌ لأوّل مرّة تراها، فلم تعرفْ إنْ كانتْ زوجةً جديدةً أُضيفتْ إلى قائمة زوجاته السّابقات، أم هِيَ جاريةٌ حَالَفها الحظُّ عَبْرَ جسدِها بالارتقاء إلى عربةٍ ملكيّةٍ والجُلوس إلى جِوار مَلِك. وتتابعتِ الوفود. ميّزتْ وفدَ (بيلاطُس)؛ هتفتْ في نفسِها: الخنزير لا يدعو إلاّ الخنازير الّتي تُشبِهه. ثُمّ مرّتْ عَرَباتِ الأمراء الحالِمين، الّذين لم يبلغوا الحُلُمَ بعد، ولم يعرفوا غايةَ السّياسة والمُلْك، ولا صِراعَ الوحوش الّذي يملؤها.

ضَجّتِ القاعةُ الكبيرةُ بالمدعوّيين، اتّخذ الملوكُ الثلاثةَ مَواضِعَهم في المنصّة الخاصّة بهم، صدَحَتِ القَينات، ودخلتْ (سالُومي) كانتْ جسدًا تلبّستْه الفِتنةُ في كلّ شيءٍ فحاصرتْ كُلَّ مَنْ رآها، وكانتْ كُلُّ عينٍ كأنّما شُدّتْ بحبلٍ إلى جسدِها فلمْ تُفارِقه أينما ذهبتْ. ولمْ يتَمالَكْ (أنتيباس) نفسَه حينَ رآها؛ أحسَّ بعاصِفةٍ تجتاحه فوقفَ بحركةٍ لا إراديّة، وحطّمَ الكأسَ الّتي في يده حينَ ألقاها بقوّة على الأرض. ضَحِكَ الملوك والأمراء لِما فعل، أمّا هُوَ فظلَّ صامِتًا مأخوذًا مُتجهّم القَسَماتِ للحظاتٍ قبل أن ينفجرَ بالضَّحِكَ، وجسده ينبعج إلى الخلف من شِدّة

ضَحِكه. ثُمّ جَلَس. كانَتِ الموسيقَى الّتي ستُرافِق رقصةَ سالومي أيضًا قد أعدّتْها (هيروديّا)؛ هل سمعتم من قبلُ بموسيقَى تفيضُ بالجوعِ إلى الجسد!! هذه كانتْ من هذا النّوع!! تعالَى صوتُها عابرًا فضاء القاعةِ الفسيحة إلى أذنيّ (هيروديّا) فرقصَ قلبُها افتِخارًا وابتِهاجًا؛ لقد بدأ السّحر الّذي أعدّتْهُ يعمل إذًا.

بهدوءٍ جريح؛ كأنّ شالاً حريريًّا يُداعبه النّسيم كانَ جسدُها يتثنّى. وبليونةٍ مذبوحة؛ كأنّ غُصنًا طريًّا يتأوّد كانَتِ الموسيقَى تُعزَف. وبرشاقةٍ خاطِفة؛ كأنّ سربًا من الطّيور يُهاجِر كانتْ يداها تُرفرِف. وبارتِجافةٍ ناعِسة كأنّ صفحةَ ماءٍ على سَطْحِ بَحرٍ تَتَرَقْرَقُ كانَ خصرُها يَتَرَجْرَج. نسيَ (أنتيباس) نفسه، فأرخى يدَيه على مِسنَدَي كُرسيّه، وفغرَ فاهُ، وظلّتْ عيناه مُحملقتَين كأنّما رَأَتَا منظرًا يخطفُ الأبصار منذُ قرون واستمرّ إلى هذه اللّحظة. وأمّا الحاضرون فملكَ المشهدُ عليهم لُبّهم فانقطعوا عن أحاديثهم الجانبيّة، وانجذبوا إلى هذه الآسِرة الّتي تعبثُ بكيانهم كُلّه. وأمّا هِيَ فكانَ الشّيطانُ يرقُصُ بدلاً عنها. حتّى أولئكَ الخُبراء بهذا الفنّ الّذين شاهدوها في تلك اللّيلة يُؤكّدون على أنّ هذه الّتي اعتلتِ المسرح لا يُمكِنُ أن تكونَ بشريّة. لو كانوا يعرفون الأبالسة لقالوا إنّها هِيَ الّتي ركبتْ هذا الجسد المُشكّل من لحم ودم وأدّتِ الحركاتِ المُدهِشة الّتي أدّتْها، لكنّهم لا يعرفون إلاّ الآلهة، فلم يَشُكّوا للحظةٍ أنّ الآلهةَ هبطت من السّماء وصاغها القَدَر في جسدِ فتاةٍ في الخامسة عشرة ترقُصُ

بهـذا الشّـكلِ الجنونـيّ. لـم يتوقـفِ الجنـونُ لحظـة. الآلهـةُ لا تتعـب هكـذا قـال (أنتيبـاس)؛ إنّ هـذه الصّبيّـة تفعـل مـا لا يُمكـن أن تفعلـه حتّـى تلـك الآلهـة، ويـلٌ لـي مِمّـا أرى. أيّهـا اللّعينُ الّـذي اقترحَ عليّ أن ترقُـصَ وحدهـا: كـم كُنتَ مُحِقًّـا؛ لا يُمكـن أن تـؤدّي هـذه الرَّقَصـاتِ فتـاةٌ فـي العالَـم كُلّـه. لكنهـا لا ترحمني هـذه الخاطِفـة، ولا تقبـلُ أنْ تُعتِقَني؛ لقـد بـدأتْ تسـتحوذُ علـى عقلـي؛ مـاذا أفعـل؟! يجـبُ أن يكـونَ لهـذا السّـحر نهايـة!!

قفـزَ (أنتيبـاس) بشـكلٍ مُفاجِـئٍ مـن عَرشِـه. صـرخَ. فانخفـضَ صـوتُ الموسـيقَى، لكـنّ الجِنّيّـة ظلّـتْ ترقُـص. فـي الخـارج عرفـتْ هيروديّـا أنّ الفـخّ اصطـادَ الفـأر. ثُـمّ صـرخَ صرخـةً أقـوى فسـكتتِ الموسـيقَى لكـنّ السّـاحرةَ ظلّـتْ تَرقُـص. فـي الخـارج عرفـتْ هيروديّـا أنّ الفَـخّ أحكـمَ الخِنـاقَ علـى الفـأر. ثُـمّ أشـار بيـده لهـا أن تتوقّـف، امتثلـتْ تدريجيًّـا، فانسـابِ السّـحر بهـدوءٍ واسـتقرّ فـي فـؤادِ (أنتيبـاس). فـي الخـارج عرفـتِ هيروديّـا أنّ الفـأرَ قُضِـيَ عليـه. تطلّعـتِ العُيـونُ إليـه تنتظـر مـا يقـول، هتـف: «أيّهـا المُلـوك.. أيّهـا الأمـراء.. إنّنـي أُعلِـن أنّنـي مُسـتَعِدٌّ علـى أنْ أُعطِيَ سـالومي مـا تطلبـه... نعـم مـا تطلبه؛ ولـو كانَ نصـفَ مَمْلكتـي. سـأُعطيها مـا تطلبـه... هـا أنـذا أُشـهِدُكم علـى مـا أقـول... ليذهـب نصـفُ المملكـةِ إليهـا؛ إنّ خصرَهـا يسـتحقّ المملكـةَ كُلَّهـا». ثُـمّ توجّـه إلـى سـالومي لينحنـي أمامهـا، خَجِلـتِ الجُـدران؛ مَلِـكٌ يَنحنـي أمـام راقِصـة!! سـألها: «مـاذا تطلبيـن أيّتهـا المُذهِلة؟!». جعلـتْ مـن انِحناءتـه تعبيـرًا

عـن فَرَحِهـا وشُـكرِها رقصـةً. لكنّهـا جثـتْ مـن جديـدٍ علـى رُكبتَيهـا، ووضعـتْ كفَّيهـا عنـد وجههـا، وقالـتْ بـأدبٍ رفيع لا يليـقُ براقِصـة ماجِنـة: «أتـأذنُ لـي بالمَشـورة؟!». «هـل الأمـر يحتـاجُ إلـى مشـورة؟!». «بلـى يـا سـيّدي؛ عَـرْضٌ كبيـرٌ كهـذا قـد يسـتدعي مشـاورة أهـل الخِبـرة». «وَمـنْ ستستشـيرين؟!». «مَـنْ علّمتْنـي هـذا الفـنّ يـا سـيّدي». «الأمـر يسـتحقّ إذًا، إنّ وراء هـذه السّـاحرة الصّغيـرة سـاحِرةً أكبـر». «هـل أفعـل يـا سـيّدي؟!». «افعلـي لكـنْ قبـلَ أنْ ينفَـضَّ السّـامِر». «سـأعودُ قبـلَ أنْ تُنهـيَ الـكأسَ الّتـي بيـنَ يديـك».

لفّـتْ شـالاً أبيـضَ علـى جسـدها خشـيةَ أن تُصيبَهـا العُيـونُ فـي الطّريـق. قابلـتْ أمّهـا فـي المـكانِ الّـذي اتفقَتـا عليـه. حَضَنتْهـا (هيروديّـا) بفرحـةٍ لا يتّسـع لهـا الكـون، كادتْ تبكـي مِـنَ الفَرحـة. قالـتْ لهـا: «لـو لـم تتفوّقـي علـيّ لمـا اعترفـتُ بـكِ ابنـةً لـي؛ الخمـرُ مـع الزّمـنِ تتعتّـق فـي الجِـرار؛ أنـتِ فـي فـنّ الرّقـصِ جَـرّةٌ مُعتّقـة». «لقـد قـال لـي: اطلُبـي مـا تشـائين ولـو كانَ نصـفَ مملكتـي. فُرصتـي يـا أمّـي لكـي أنسَـى عهـدَ الشّـقاء، وأعيـشَ أميـرةً. فمـاذا أقـول لـه؟!». «العيـشُ يـا ابنتـي فـي القُصـورِ الشّـامخة لا يهـبُ الفـؤادَ ليلـةَ اسـتقرارٍ واحـدة؛ إنّ قلبـي يحتـرقُ مـن الدّاخـل يـا سـالومي، ولا يُطفِئـه إلاّ شـيءٌ واحـدٌ!!». «ومـاذا أطلـبُ منـه إذًا؟!». «اطلبـي رأسَ يحيـى بن زكريّـا علـى طبـقٍ مـن ذهـب. لِـيَ الـرّأسُ ولـكِ الطّبـق».

عـادتْ إلـى القاعـةِ مُسـرِعةً. اعتلـتِ المسـرح مـن جديـد. رفـع (أنتيبـاس) يـده وهـو يحمـلُ الـكأس مُشـيرًا لهـا أن تطلـب. انحنـتْ. جثـتْ. طأطـأتْ هامَتهـا. صمتـتْ. هتـفَ

بهـا مُشـجّعًا: «اطلُبـي فـي حضـرةِ هـؤلاء النّبـلاء فلـن أردّ طلبـكِ مهمـا كان؛ مـا لـمْ يَـزِدْ عـن نصـفِ المملكـة؛ أريـدُ أن أعيـشَ بالنّصـفِ الثّانـي». ثُـمّ أطلـق قهقهـةً عاليـة. ردّتْ كأنّهـا تدرّبـتْ على طلبهـا هـذا فـي الطّريـق: «أُريـدُ رأسَ يحيـى بـن زكريّـا علـى طَبَـقٍ مـن ذَهَـب». أوقـفَ (أنتيبـاس) ضَحِكتَـه الفاجِـرة، سَـقطَتِ الـكأسُ مـن يـده فتحطّمـتْ عنـدَ قدميـه، كـذّبَ مـا سَـمِع، توقّـع كُلّ شـيءٍ إلاّ هـذا، سـألها كأنّـه يريـد أن يتأكّـد مـن أنّ الّـذي سَـمِعه صحيـح. أجابتْـه بوضـوحٍ هـذه المـرّة سَـمِعَه كُلُّ مَـنْ فـي القاعـة: «أُريـدُ رأسَ يحيـى بـنِ زكريّا علـى طَبَـقٍ مـن ذَهَـب». بلـعَ ريقَـه. سَـمِعَ صـوتَ يحيـى قادِمًـا إليـهِ مـن أوّل لقـاءٍ رآه فيـه. اسـتعادَ مـا قالـه آنـذاكَ لـه فرجـف. اضطـرب. لأوّل مـرّة يُحـسّ أنّ سـاقَيه تَرتعِشـان كأنّمـا رُكِّبتـا علـى جَناحَـيْ ذُبابـة. اسـتعادَ بعـضَ الهـدوء. قـال لهـا وهـو يهـزّ جِذعـه: «اُطْلبـي أيَّ شـيءٍ آخـر... أيّ شـيءٍ آخـر... لا أسـتطيع أن أقتُـلَ هـذا الرّجـل؛ إنّـه قِدّيـس». هتفـتْ بـه بقـوّة هـذه المـرّة كأنّهـا ليسـتِ الرّاقصـة المِغنـاج ذات الخمسـةَ عشـرَ ربيعًـا: «لقـد سـمعتَ طلبـي، وسَـمِعَه كُلّ هـؤلاء، أتريـدُ منّـي أن أُعيـده عليكـم مـن جديـد أيُّهـا السّـادة؟!».

لقـد صادَتْـه العَجـوز. هـذه الفاجـرة تغلّبـتْ عليـه. لـم تكـنِ ابنتُهـا إلاّ طُعمًـا. وهـو؟! وقـعَ فـي ورطـةٍ يبـدو أنَّ التّخلّـصَ منهـا مُسـتحِيل. هـل يجـرؤ علـى أن يقتـلَ قِدّيسًـا؟! قـد يفعـل. لكنّـه بالتّأكيـد لـن يجـرُؤ علـى أن يتراجـع عَـن وعـده، لـو كان وَعَدَهـا بينَـهُ وبينَهـا لاسـتطاعَ أن يتملّـص مـن هـذا الوَعـد بسـهولة، أَمَـا وأنّ الوعـد قـد قطعـه علـى نفسـه بـأنْ يُلبّـي لهـا

أيّ شيءٍ تطلبه وأمام كُلِّ هؤلاء الشّهود فكيفَ يستطيعُ الفِرار منه؟!!

خرجتْ (سالومي) إلى (هيروديّا). حَضَنتْها من جديد، قالتْ لها وهي تحضُنُها: «مُلكُ الدُّنيا كُلّه لا يُمكنْ أن يَشفي قلبَ امرأةٍ تتطلّع للانتِقام. الآن ارتاحَ ضميري». عادَتا إلى المَبغَى. في اللّيل ظلّتْ (هيروديّا) تحلُمُ برأس يحيى يأتيها على طبقٍ من ذهبٍ وعيناه جاحِظَتان، إنّ بينها وبينَه حديثًا طويلاً يجب أن تُسمِعه له. إنّها لن تهدأ وإنْ كانَ رأسُهُ المَقطوعُ بينَ يدَيها حتّى تُفّرّغ في وجهه كُلّ الكلمات الّتي صاغَها الحِقدُ الأسود المكنوزُ في قلبِها.

أمّا (أَنْتيباس) فلم يجد إلى النّوم سبيلاً. لقد لدغتْهُ الأفعَى وانتهى، والحلّ الآنَ يكمُنُ فَي تقليلِ أثر السّمّ الّذي بدأ ينتشر في جسده. تصارعتْ في أعماقه مئاتُ الهواجِس، سأل نفسه: «كيفَ تقتلُ مَنْ لا ذنبَ له؟!». أجابه الشّيطان القابع بينه وبينَ نفسِه: «أنتَ مَلِكٌ وتستطيع أن تقتلَ مَنْ تشاء». «ولكنْ رأسَ يحيى؟! لو طَلَبَتْ أيَّ رأسٍ آخر، لو طلبتْ رأسَ (فيلُبُّس) لكانَ أسهل». أجابهُ الصّوتِ باستِهزاء: «أَكُلُّ الرُّؤوسِ سَواء؟!!».

كادَ اللّيلُ يُزهَق ولم يجدِ النّومُ إلى عينَيه سبيلاً. فكّر بطريقةٍ قد تُخلّصه من عذاب الضّمير هذا، نادَى قائِدَ الجيش، شاورَه في الأمر، فأشارَ إليه أنْ يبعثَ إلى كاهنِ اليهود (قيافا) الأكبر يَستشيرُه في ما هو مُقدِمٌ عليه. ففعل. قال لكاتبه اكتبْ: «أيّها الحَبْرُ الأعظم إنّي اضطُررتُ إلى قطعِ رأسِ يحيى ابنِ كاهنكم زكريّا، فَبِمَ تُشيرُ عَلَيّ؟!».

(٤٢)

مَنْ كانَ مِنْكُمْ بلا خَطيئةٍ فَلْيَرْمِها أوّلاً بحجر!

غادرَ النّاصرة، وأغارَ وحده هذه المرّة على (مَجْدلة)؛ الأمر لا يتطلّبْ رِفاقًا معه في هذه الجولة؛ يستطيعُ أن يقومَ بها وحده؛ ثُمّ مِنَ العار أنْ يفعل ذلك مع آخرين، والخصمُ ليسَ إلاّ امرأة!! امرأة ناعِمة، يُميّزها جسدٌ رخيصٌ، وشعرٌ أسودُ فاحمٌ ينسدل خلفَ ظهرها حتّى يكاد يمسُّ خصرَها.

ترقّبَ طلعتَها مِنْ الدّار. منذ شهرٍ وهو يجلِسُ في زاويةٍ مُطلّةٍ على بيتِها ويُتابِعُ ما يجري. رأى العشرات يدخُلون، والعَشَراتِ يخرجون. كانوا موزّعين بين فِتيانٍ في العقد الثّاني، ورجالٍ في العَقدِ السّادس؛ بعضُهم جاءَ ماشِيًا، وبعضهم على حِمار، وآخرون على خيول، وصنفٌ مُميّز، عبرَ الطّريق الموصلة من هذه الزّاوية إلى بيتها على عَرَبةٍ فاخرة. قال لنفسه: «بيتُ الفاجِرةُ لا يَرُدُّ أحدًا. إنَّ لبيتِها قدرةً على استقطاب أصنافٍ مُتنوّعة من النّاس لا يقدر على استقطابهم بيتُ الله!!».

لَبَدَ مكانه في ضُحَى يومِ سبتٍ من الأسباتِ الّتي يتوقّف فيها العمل مُراعاةً لحرمَته وقداسَته!! تعدّتِ العتبةَ حتّى نفذتْ من فَمِ الطّريق، ثُمّ سارتْ في الزّاروبةِ الضّيّقة الّتي تمتدّ أمام بيتِها وبيوتٍ أخرى مُفضِيةٍ إلى طريقٍ أوسع، ومنها إلى السّوق. حينَ صارتْ بموازاته انقضّ عليها كما ينقضُّ أسدٌ على غَزالٍ شارِد. عقدتِ المُفاجأةُ

لِسانَها، همّتْ بأنْ تستغيثَ من هذا الوحشِ الكاسِر، لكنّه عاجلها بوضع يدِه على فَمِها فأخرسَها. نظَرَ في وجهها والشّرر يتطايَرُ مِنْ عَيَنيه، وهتف: «استمتعتِ بما يكفي، الآنَ جاء دور الحِساب». سحبَ من جانبه قِطعةً سوداءَ من القماش، كمّمها بها. قَيَّدَ يدَيْها خلفَ ظهرها. جاءه صوتُها نازًّا من وراء الكِمامة، مثلَ مُشفٍ على الموتِ يُعالِجُ روحَه المُتَحَشرِجة. أتمّ مَهمَّته؛ ربطَ يدَيها خلفَ ظهرها، وقذف بها على حِصانه، وعدَا بها إلى أطرافِ النّاصرة.

تزحزحتِ الكِمامة عن فَمِها قليلاً. لم تنبِسْ بحرفٍ واحدٍ، انتظرتِ اللّحظةَ المُناسِبَة لتفجّر صرختها الاستِغاثيّة. مرّتْ في طريقِها بعجوزٍ تقفُ أمام بابِ بيتها الخشبيّ. صرختْ بكلّ ما أوتيَتْ من قوّة: «أنجدِيني يا أمّاه، إنّهم يختطفونني». فتحتِ العجوزُ فمَها، أرادتْ أن تقولَ شيئًا فلم تفعل. حدّقت في المرأةِ المُستغِيثة، فعرفتْ أنّها مريم المجدليّة؛ فتأفّفتْ واستعاذتْ بربّ موسَى منها، كان آنذاك قد هُرِعَ إليها أحدُ أبنائها مُستطلِعًا: «ماذا يجري يا أمّي؟!». «لا شيءَ يا بُنيّ مُجردّ ساقِطة قُبِضَ عليها. يبدو أنّنا سنتخلّصُ منها ومن السّمعة السّيّئة الّتي تجُرُّها على بلدتنا إلى الأبد». «لِيُساعِدْها الرّبّ». كانَ الحصان قد تجاوزهم بمسافة حينَ التفتَ إليها (باراباس)، وصَفَعَها على وجهها صفعةً فقدتْ معها الوعي سريعًا.

نزلَ بها إلى السّاحة الواسِعة الّتي تجمّع فيها عددٌ

مـن قُطّـاع الطّـرق مـع (باراباس)، قـال لهـم: «هـل حفرتُـم الحفـرة كمـا قلـتُ لكـم؟!». ردّوا كمـن ينتظـرون صيـدًا ثمينًـا: «بالطّبـع يـا باراباس كلّ شيءٍ جاهِـز» لمعـتْ عُيُونُهـم؛ لقـد جرّبـوا أن يقتلـوا قبـلَ هـذه المـرّة، قتلـوا بالسّـيف وقتلـوا بالسُّـمّ وقتلـوا بالخَنـقِ؛ لأوّل مـرّةٍ سـيقتلون بالرَّجْـم، غامرهـم شـعورٌ بالسّـعادةِ لا يُوصَـف، بـدا أنّ القاتِـل يسـتمتع بضحيّتـه أكثـر إذا غيّـر أسـلوبه فـي القتـل؛ فاللّوحـة ذات اللـون الواحـد لا تُبهِـجُ مثـل تلـك الّتـي تتعـدّد فيهـا الألـوان!

خلـفَ زيتونـةٍ كبيـرةٍ قبـعَ رئيـسُ الأَخَويّة، كبير فرقة فرسـان المَسِـيَّا (يهـوذا) يُراقِـبُ المشـهدَ عـن بُعـد، آلاف الأفـكار يتفجّـر بهـا رأسُـه، مـا زال علـى توجّـسٍ مـن يسـوع؛ يتبعـه أم لا؟! هـل سـيُحقّق المسـيح رغبتـه فـي القضـاء علـى الجنـس البشـريّ الفاسِـد بالسّـيف والمِقصلـة، أم يدعـو إلـى هـذا الخـلاص بالبسـمةِ والكلمـةِ الطّيّبـة؟!! ومتـى كانـتِ الكلمـةُ الطّيّبـة تُثمـر فـي القلـوبِ المُظلِمـة!! هـل رأيتُـم صخـرةً تُنبِـتُ عُشـبًا ولـو سُـقِيَتْ بِمـاءِ المُحيطـات!! كَمَـنَ خلـف الزّيتونـة يراقـبُ مـا سـيحدُث وأرسـلَ طرفَـه فـي البعيـد كأنّ الأمـر لا يعنيـه. عنـدهُ حـدسٌ كبيـرٌ أنّ هـذه الحفـرة المُرعِبـة الّتـي حُفِـرتْ مـن أجـل هـذه البائسـة المسـكينة ستشـهدُ أحداثًـا تتعـدّى مجـرّد رَجـمْ امرأةٍ زانِيـة. لا بُـدّ أنّ قدمَيـه سـاقتاه إلـى هـذا المـكان لحِكمـة، بالطّبـع ليـسَ للقـدر علاقـةٌ بالأمـر، إنّـه نـداؤه الخفـيّ الّـذي يتبـعُ صوتَـه دائِمًـا ليعـرفَ مـا يريـد. واليـومَ قـال لـه هـذا الصّـوت: إنّ المَسِـيّا هُنـاك؛ فحضـر.

كانتْ مريم المجدليّة لا تزالُ مُلقاةً على الأرض مثلَ حيوانٍ جريح، ويداها مربوطتان خلفَ ظهرها. اقتربَ منها (باراباس)، بصقَ في وجهها واستعاذ بربّ موسَى من الشّياطين الّتي تسكُنها، فَكَّ قيدَ يدَيْها، أوقفها بُجثّته الضّخمة مثلَ شاةٍ مَذبوحة، شَدَّها مِن شَعْرها، وسحَبَها إلى الحُفرة، وهناك فَكّ قيودها. علتْ أصواتُ اللّصوص في المكان، كانتِ الشّمس تتوسطُ السّماء، زادتْ حرارتُها من هِياجِهم فصاحوا: هيّا.. هيّا... هذه الحجارة تنتظرُ أن تشبع من دمكِ... ورفعوا حجارةً تكادُ تنوءُ أيديهم بحملها لِثِقلها. سيطرَ الرُّعبُ على مريم، بدأتْ بالصُّراخ داخل الحفرة فلم يُعِرْها أحدٌ اهتِمامًا، لكنّ صدى صرخاتها كان يُدفَنُ معها هُناك. تزايدَ عددُ النّاس، لقد طلبَ (باراباس) من بعضِ رفقائه أنْ يدعُوا أهل (مَجدلة) كُلّهم ليشهدوا نِهايةَ الآثِمة. بدأ النّاسُ يَهتِفون، كانَتْ أصواتُهم تنمّ عن ابتِهاج كمن يحضُرُ احتِفالاً لا كمنْ يُعايِنُ مأساةً.

حشدٌ آخر من النّساء برزْنَ من كُلّ جهةٍ. لا أحدَ إلاّ الله يعلَمُ لِمَ تحضر امرأةٌ عذابَ امرأةٍ أخرى!! مُعظمهنّ كُنّ من الشّابّات في العشرينيّات أو الثّلاثينيّات، العجائز كُنّ الأقلّ. قالتْ شابّة بِتَشَفٍّ لأخرى تقف إلى يمينها: «إنّها تستحقّ. لِتَذْهب إلى الجحيم». أجابتها الأخرى: «لقد استأثرتْ بالرّجال دونَنا». «إنّها لم تُبقِ لنا صغيرًا ولا كبيرًا، لا فلاّحًا ولا قائِدًا». «الّذي يأكل وحده يُصابُ بالجوع». «ما أسعدني اللّحظة!!». هتفتْ بهنّ عجوز كانتْ تتلصّصُ على ما يَقُلْن: «لو عَمِلتْ معي لما جَرُؤَ أحدٌ على أنْ يقتربَ منها!».

وقفَ (باراباس): على طرفِ الحفرة، ووجّه كلامه إليها: «أيّتها المرأة الخاطِئة...» قال يهوذا لنفسه مُتَنَدِّرًا: «اللّصّ بدأ يَعِظ..». تابعَ (باراباس): «لقد زَنَيْتِ...» ردّ يهوذا في نفسه عند هذه العبارة ساخِرًا: «وما تكونُ أنتَ مع المجدليّات اللّواتي أتيتَ بهنّ ذاتَ ليلةٍ لنا جميعًا!!». تابعَ (باراباس): «وحسبَ شريعةِ موسى...». ردّ يهوذا: «الذّباب عندما يتحدّث عن النّظافة...». تابعَ (باراباس): «فإنّني أحكمُ عليكِ بالرّجم حتّى الموتِ». وانفجر المشهد. تعالتِ الأصواتُ مُؤيّدةً، زغردتْ بعضُ النّسوة، حَجَلتْ بعضُ العجائز، وتناولَ الحجارةَ كثيرٌ من الرّجال استِعدادًا لتنفيذِ الحُكم. في تلك الأثناء كنتُ أنا وعددٌ من التلاميذ نمشي، صعدْنا من بئرِ بلدةِ (مجدلة)، وتوجّهنا إلى بعضِ شعابِها نلتمسُ الرّاحَةَ والهُدوء من جَلَبَةِ النّاس وتكاثِرهم علينا. تناهتْ إلينا تلك الأصواتُ، فلمْ أرتحْ لها، فطلبتُ من التلاميذ أن نتجنّبّ المكان أو أن نعودَ أدراجَنا، فهتفَ بي يُوحنّا: «يا مُعلّم قد يكونُ من الخير أن نتبعَ هذه الجَلَبَة، لعلّ أحدًا محتاجٌ إلى مُساعدِتنا، ونحن قادِرون». اقتنعتُ بقوله، فعجّلْنا مسيرَنا. ولمّا وصلْنا إلى السّاحةِ حيثُ الأعداد الغفيرة من النّاس تَصِيْح عَرَفني بعضُهم لمّا رآني، فصاح: «أفسِحوا الطّريق... إنّه يسوع النّاصريّ... أفسِحوا الطّريقَ له». تقدّمتُ فرأيتُ (باراباس) فعرفتُ أنّ شرًّا مُستطيرًا سيقع. كانتِ الأصواتُ قد هَمَدتْ تمامًا، لمْ يرتَحْ (باراباس) لرؤيتي، وتناوَلَ حجرًا كبيرًا. قال وهو يرفعه: «أنا سأكونُ

أوّل البادِئين». فهتفتُ به: «على رِسْلِكَ يا باراباس، ومَنْ أعطاكَ الحقَّ في أن تُنصِّبَ نفسكَ قاضِيًا على شريعةِ موسى». كانتْ يدهُ قد ارتفعتْ فجمدتْ مكانها لمّا سَمِعَ ما قلت، ثُمّ ارتختْ فأسقطَ الحجر من يده. أمّا المجدليّة فكانتْ تقبعُ في أسفل الحُفرةِ وقد لفّتْ رأسَها بذراعَيها وانتظرتِ الموتَ المُحقَّقَ الفظيع وهي ترتجفُ من الخوف. فلمّا طال وقتُ انتظارِها عَلِمَتْ أنّ أمرًا ما قد تغيّر فوق، على الأرض. فنهضتْ بحذرٍ وارتِجافٍ تستطلعُ ما يجري، فتراءتْ لها وهي واقِفةٌ على رؤوسِ أصابِعها سيقانُ الّذين جاؤوا ليشهدوا عذابها وقد تشكّلتْ مثل غابةٍ من الجذوع الكثيفة على شكل حلقةٍ دائريّة، وفي الوسط شاهدتْ (باراباس) الّذي اختطفها، وآخر يقفُ في مواجهته لم تره من قبلُ لكنّه بدا وَدودًا. سمعتْهما يتجادَلان، ورأتْ عُيونَ المتجمهرين قد غَفِلَتْ عنها وتعلّقتْ بهذين الرّجلَين، ففكرّتْ أن تحتمي بهذا الرّجل الّذي يُواجه (باراباس)، إنّها فرصتها الأخيرة للإفلات من براثنِ الموت. قالتْ لنفسِها: «سأجرّب، لن أخسرَ شيئًا؛ فأنا كنتُ في عِدادِ الموتَى قبلَ قليل». أنشبَتْ أظافرها في طرفِ الحفرة، دفعتْ بجسَدِها في محاولتها الأولى للقفزِ خارجَ الحفرة لكنّها فَشِلتْ، وقعتْ في أسفلها مثل كلتةٍ من الطّين. قامتْ من جديد، كان جدار الحفرة من الدّاخل طريًّا، ربّما ماءُ البئرِ رطّبَ كُلَّ الأرضِ الّتي حولها. راحتْ بنهم شديد تحفرُ بأظافرها الجدار الرّطب على بُعدِ ذراع من أسفلِ الحفرة، حفرتْ ما يُمكّنها من أن تضعَ قدَمها